

الإسلام الجديد في العالم الإسلامي : ظهور المجال العام* (إيكلمان وأندرسون)

مراجعة أبوبكر باقادر

يسعى هذا الكتاب الذي يتكون من عشر مقالات لتناول جوانب مختلفة في موضوع أثر وسائل الاتصال الحديثة المختلفة في حياة المجتمعات المسلمة. ويمكننا القول بأن السؤال المحوري للكتاب هو: كيف تشكل وسائل الاتصال الحديثة من فاكس ومحطات بث تلفزيوني فضائية إلى الإنترنت والبريد الإلكتروني بالإضافة إلى الوسائل الاتصالية القديمة من أشرطة تسجيل صوتي وفيديو وسينما وروايات وهاتف وصحافة إجمالاً وتعيد تشكيل المعتقدات والسلطة بل والمجتمع المحلي في العالم الإسلامي؟ وإلى أي مدى غدت هذه الوسائل متاحة يمكن أن يستخدمها التقدمي والعصري الإسلامي والاتجاه المحافظ وغير المحافظ وجمهور المسلمين عامة في تقديم ليس فقط تصوراتهم وطموحاتهم وإنما في تأكيد ذاتهم وأحياناً كثيرة إعادة تشكيلها.

تتناول الأوراق المعروضة في هذا المجلد هذه الأسئلة من زاويتين: زاوية نظرية تحليلية وأخرى ميدانية تتناول نوعاً اتصالياً محدداً في سياق اجتماعي ثقافي معين. وإذا ما أخذنا في استعراض أهم ملامح الأبحاث المقدمة، فإننا نجد أن الفصل الأول يتناول مسألة إعادة تعريف مفهوم

(*) Dale F. Eickelman and John W. Anderson (eds.), *New Media in the Muslim World: The Emerging Public Sphere*, Indiana University Press, 1999, p. 213.

الجمهور في العالم الإسلامي وكيف أن الحريات الجديدة التي تقدمها وسائل الاتصال الحديثة والتي تمكنت من تجاوز عقبات قدرة الدولة على الرقابة والفاكس كوسيلة للوصول إلى جمهورهم المستهدف.

ويعالج الفصل الرابع الإنترنت وكيف استخدم من طرف العديد من الجماعات والمؤسسات الأهلية، سواءً أكانت إسلامية أم سواها لتقديم أفكار وطروحات حديثة. ويضرب الباحث الأمثلة بما يسميه مسجد الأثير وكذلك ما تقدمه الحركة الإسلامية للإصلاح وجمعية الطلاب الماليزيين موضحاً أن الظاهرة تقدم ما يمكن أن يسمى بالعالم الأثيري أو الافتراضي الذي يزود جمهوره بمعلومات وأفكار بل وتكوين مواقف من الصعب التحكم في السيطرة عليها، وربما كان عدد الذين يقومون بها محدوداً، لكن بإمكانهم أن يتواصلوا مع الملايين وبشكل تفاعلي مما يجعلنا ندخل في عالم اتصالي لا تزال آفاقه جديدة، وقيد الاستكشاف، وما يترتب على التوسع فيه غير معروف بعد مما دفع الباحث إلى تقديم فكرة علم اجتماع الإنترنت ودراسة إيكولوجيا الاتصال.

أما الفصل الخامس فيقدم أفكاراً وأسئلة جديدةً حول الاستهلاك الثقافي في بيئة مختلفة عن البيئة التي أنتج فيها معطى ثقافي ما، فهو يتناول مسألة الكتب والأفكار الإسلامية ذات السياقات الثقافية والاجتماعية المكتوبة عن الإسلام والتي تتناول بيئاتٍ مختلفةً تماماً عما هو عليه الحال في الولايات المتحدة الأمريكية، ومن ثم أثرها عند وصولها إلى الولايات المتحدة في أيدي الجالية المسلمة فيها، وكيف أن الحالة ربما احتاجت إلى تقديم برامج وأفكار معرفية واتصالية جديدة خاصة ومناسبة للأوضاع في الولايات المتحدة، تأخذ السياسات الثقافية والاجتماعية في اعتبارها. وفي الواقع فإنّ الباحث يقدم نماذج لأمثال هذه المشروعات التي ترغب في تقديم الإسلام في سياقه الجديد.

أما الفصل السادس فإنه يتناول موضوع استخدام وسائل الاتصال في أندونيسيا من طرف جماعات الرأي وبالذات الإسلاميين وكيف أن قوانين الدولة التي كانت تسيطر على نشاطات هذه الجماعات وتحد من إمكانيات

وصولهم إلى الجماهير لم تعد فعالة، مما أدى إلى ظهور أشكال ثقافية جديدة مكنت من ظهور نوع جديد من التعامل مع العادات والتقاليد الأندونيسية القديمة في ظل معرفة فقهية متزايدة مما سيولد روحاً وفكراً إسلامياً جديداً.

ويعالج الفصل السابع مسألة الحداثة عبر وسائل الاتصال الجماهيري في مصر وكيف أن هذه الوسائل وإن كانت احتكارية في الماضي بسبب نفوذ الدولة في صناعة السينما وفي عالم الصحافة والنشر إلا أن الذائقة البرجوازية والميل إلى أنواع ممتعة من الترويح والمتعة وجهت صناعة النشر في اتجاهات جعلتها تتعارض أحياناً كثيرة مع قيم وتوجهات فئات اجتماعية واسعة مولدة بذلك تعارضات في الأفكار. ولعل من أبرز ما قدمه الفصل ما أسماه بخطاب البلاج: 1992 حيث الجدل حول ملابس البحر للنساء وما تعرضه وسائل الاتصال والنقاشات التي دارت حول ذلك سواء في الصحف والمجلات «روز اليوسف» أو في السينما أو في الصحافة المصرية عموماً. ويتبين من الجدالات أنه بخلاف النقاشات الماضية؛ فإنّ هناك موقفاً إسلامياً جديداً وسلبياً إزاء الموضوع.

أما الفصل الثامن فإنه يوضح كيف تحول عالم النشر في بنغلاديش من مجال كان حكراً على الإسلاميين التقليديين ليصبح مجالاً خصباً متنوعاً لهم ولغيرهم. فبظهور بعض الكتاب العلمانيين الذين ألفوا روايات وكتب تدعو لقيم جديدة غربية في توجهاتها، ظهرت أيضاً كتابات إسلامية جديدة بعضها مترجم من العربية. ويورد الفصل مثلاً على ذلك ترجمة كتاب «الحلال والحرام في الإسلام» للقرضاوي وكيف أن هذا النوع من الكتب قدم نوعاً جديداً من الكتابات الإسلامية في بنغلاديش. لكن بالإضافة إلى ذلك هناك ظهور أنواع جديدة من الروايات والقصص ذات الطابع الإسلامي لكنها مكتوبة بروح عصرية جديدة وبعضها مترجم عن الأوردية. لكن الكثير أصبح يكتب مباشرة من طرف مبدعين بنغلاديشيين منافسين بذلك الكتاب ذوي النزعات العلمانية. ومما يصوره الفصل يظهر أن صناعة النشر أصبحت رائجة وتشكل مجالاً جديداً لاستحداث رأي عام جديد.

ويتناول الفصل التاسع مسألة التوسع في قنوات النشر بكافة أنواعها في تركيا المعاصرة مما دعم وجود اختيارات واسعة للجُمهور ليختار ما يريد. ويرى صاحب المقال أن الانفتاح التركي في مجال الإعلام وإطلاق الحريات لدرجة ما ولد نوعاً من الثقة في وسائل الإعلام ربما كانت فريدة في العالم الإسلامي. ويظهر أن هذا التصور مبالغ فيه إن أخذنا في الاعتبار الطريقة التي تتعامل بها الحكومة مع الأفكار والأطروحات التي تقدمها الجماعات الإسلامية.

ويتناول الفصل العاشر والأخير موضوعاً في غاية الطرافة والأهمية وعن المجتمع التركي الذي يتميز أيضاً بتنوع سكانه إثنيًا ومذهبيًا، فهناك علويون ونقشبنديون ونورسيون، بالإضافة إلى وجود أكراد وعرب وخلافهم. وبالمقابل يوضح الكاتبان أن وسائل الاتصال الإلكترونية الحديثة مكّنت أصحاب هذه المجموعات أو الجاليات من التواصل مع بعضهم بعضاً، بل وخلق وإبداع هويات جديدة عبر هذه الوسائط مولدة ما أسماه بالهويات الاتصالية، هويات افتراضية ربما يصعب على بعضها أن تقوم في العلن، لكن هذه الفرص الاتصالية الجديدة، كما يرى كاتب المقال، ولدت فرصاً وآفاقاً جديدة، وجمعت شمل مجموعات لم يكن بإمكانها أن تتجمع سوى عن طريق هذه الوسائل ولقد عززت هذه الوسائل أنواعاً جديدة من الخصوصيات الجماعية.

وإجمالاً لا يمكننا أن نقول إن هذا الكتاب متنوعه وملاسته لموضوعات الاتصال الجديدة إنما يتناول موضوعات المستقبل، فهو بذلك يفتح آفاقاً وإمكانيات بحثية وثقافية جديدة. إذ من الواضح أن الأفكار والأطروحات التي تقدمها الفضائيات أو الإنترنت لنظرة ومشاركين في جميع أجزاء العالم إنما ستولد أولاً مجتمعات محلية على مستوى العالم، إضافة إلى تمكينها كافة الجماعات من إقامة مجتمعات مدنية حرة من الاحتكار والرقابة وهي في كل الأحوال متوفرة وبأسعار زهيدة. كذلك فإن هذه المعلومات والأفكار ستكون متاحة للجميع وليس لطرف محدد، سواء أكان داخل الجماعة أم بين المسلمين وغيرهم مما سيمكن دون شك لمزيد من التعارف أو التحاور ومن

ثم سماع الآراء في شكلها الكامل، وهي مورد لم يكن متاحاً في الماضي بل وغير متخيّل. فالموضوع المعروض لا يخص التواصل بين المسلمين وحدهم ولا يحدد معالم الاستهلاك الثقافي الجديدة بينهم، وإنما يطرح في الوقت نفسه المسألة نفسها والقضية ذاتها على كافة أنواع المجتمعات الإنشائية، إنما التحدي الجديد لانفتاح الناس جميعاً على آفاق بدون حدود.